

حضور المعمار العربي في المشهد الثقافي الأدبي ... باهت!

د. وليد أحمد السيد

معماري وباحث أكاديمي ومؤسس مشارك لهيئة نقاد العمارة العربية بلندن
الوطن العمانية، الأحد الموافق 18 سبتمبر 2011

قلّما يطالع المرء رواية في الأدب دون أن يكون للعمارة، وصفا للمكان وحضورا في الأداء، نصيب الأسد في إرساء دعائم القصة وأركانها. بل لعل أحداث بعض الروايات لا تكتمل روعة إدراكها إلا بوصف دقيق وتفصيلي لصروح عمرانية "حقيقية" تشكل جزءا لا يتجزأ من فهم وتفاصيل الحكمة وسرد القصة. وليس أدل على ذلك من روايات "دان براون" الشهيرة التي تحولت إلى مجموعة من الأفلام، مثل "رواية دافنشي" التي تبدأ بمتحف اللوفر بباريس، وتدور في أروقتة وقاعاته وساحة المتحف، قبل أن تنتقل لشوارع باريس وأحيائها ثم ريفها لتنتهي في كاتدرائية ويستمنستر بلندن. وهناك رواية "الملائكة والشياطين" لنفس الأديب "براون" والتي تدور في الفاتيكان وتدور أحداثها في كنائس وصفتها الرواية وصفها "معماريا" مطابقا للواقع، كما وصفت "تموضعها" على خريطة المدينة وكانت هذه العلاقات الإحداثية إحدى مفاجآت القصة نفسها. ومؤخرا صدرت لنفس القاص والروائي العالمي "براون" رواية "الرمز المفقود" وتدور أحداثها كذلك في أحضان العمارة والعمران. من قبل "براون" نجد "تشارلز ديكنز" ورواياته العالمية مثل "أوليفر تويست" و"ديفيد كوبرفيلد" والتي تدور أحداثها في مدينة لندن وتصف معالمها. في الأدب العربي نجد "نجيب محفوظ" ورواياته "زقاق المدق" و"نجد" أمين معلوف" ورواية "ليو الأفريقي" والكثير من الروايات التي تصف المكان المعماري وتعتمد عليه اعتمادا "كمنصة للقصة" وكخشبة المسرح التي لا تقوم الرواية بدونها مطلقا. فإحدى أسس الرواية الأساسية، مع الشخص والظرف التاريخي، هي المكان وإبداعاته وتجلياته، وبدون هذا المكان وتفصيله تدور أحداثها في "اللاوجود" أو في "الفضاء" وهو أمر مستحيل قطعاً.

من اللافت، وبعد هذه المقدمة في أهمية ودور العمارة في الأدب، العالمي والعربي سواء بسواء، أن المعماري هو أكثر "المنقذين" غيابا عن المشهد الأدبي - إن لم يكن غائبا تماما! وهذا ما سنقف على دلالاته وعلاته في هذه السطور مع تحليل للداء وإيجاد للدواء. من أبرز مشكلات "صناعة المعماري" وتخريج جيل العمارة أنها "كمهنة" قلما تحرك الإبداع في مجالات سوى

الرسم، وبشكل أقل حضوراً، الأكاديمية بمفهومها الضيق المحصور بإعادة إنتاج ما تم إنتاجه. فالتعليم المعماري في الوطن العربي يتميز بمهنتين أساسيتين: الأولى هي استلام "نخبة" الطلبة من مقاعد الدراسة المدرسية وطليعة الأذكياء المبدعين، في مختلف المباحث والعلوم ومنها الأدب، ليعمل فيهم التعليم المعماري السائد "مبضعه"، ويوجههم غالباً الوجهة الفنية تجاه الرسم والتصميم، لتتلاشى على مدى بضعة سنوات أية سمة من سمات الإبداع الأدبي - ليتخرج الطالب المعماري "علامة زمانه" في الرسم اليدوي، مجيداً وحاذقاً في استعمال الكمبيوتر لإخراج الرسومات المعمارية، ولاحقاً تجده جالساً من جديد على مقاعد تعلم "كيفية كتابة السيرة الذاتية" للتقدم لوظيفة مناسبة كيلا يضاف لنادي الباحثين عن عمل في محيط "السوق المعماري" الذي اكتظ أصلاً بهذه الكفاءات "التي تم إنتاجها إنتاجاً مصنعياً" كوحدات "شبه متماثلة" على أيدي "اساتذة" جامعيين برعوا في الإنتاج، وإعادة الإنتاج، وإعادة إعادة الإنتاج، فضلاً دور "خفي" غير مباشر بواسطة التلقين يسهم في قتل الإبداع، وإعادة قتل الإبداع، ثم إعادة إعادة قتل الإبداع - ودفنه!

من نجا من هذه العملية الجبارة، وماكينته الإنتاج الجارفة "أحادية الإتجاه"، وهم قلة وندرة، ومن بقيت فيه بقية من حياة أو رفق، ومن وافته الظروف وابتسم له الحظ، يكمل مشواره الأكاديمي لينضم لقاافلة حملة الشهادة العليا في مجال العمارة، ويسعى بجهد عَزَّ نظيره لإثبات نفسه في ساحة المعماريين ومصاف الأكاديميين - وهذا يبغده أكثر فأكثر عن مجال الثقافة والأدب التي برع فيها قبل عقدين من الزمان، أيام كان طالباً نجيباً على مقاعد الثانوية العامة، ليصبح جُلَّ اهتمامه هو محاكاة "إعادة الإنتاج" وإعادة إعادة (للأس العاشر) الإنتاج، دون أن يكون له، ولا لنادي المعماريين الأكاديميين الذين انتسب إليهم، حظ من "أدب" أو منافسة تذكر على صعيد الثقافة العامة أو جمهرة المثقفين المبدعين الذي يصبون إبداعاتهم في حقول المعرفة الإنسانية والأدبية. ولو سنحت الفرصة له فقد يقرأ في وقت فراغه، خارج تخصصاته المعمارية الضيقة المحدودة، على اعتبار أن العالم بات "متخصصاً"، ويستمتع برواية أدبية تستعمل "العمارة" كإحدى الخلطات الأساسية في مكوناتها، دون أن يرف له جفن أو تتحرك فيه مشاعر من "غيرة"، فوصف العمارة وتوصيفها وتداخلها في الأدب وحضورها اللافت في الرواية وروعة "البيان" وسحر المكان وأدب الرحلات وعجائب العمران وبدائع المدائن، لا تعنيه بحال، فهو إما معماري "يقبع" خلف شاشة مضيئة محملاً في برنامج "أوتو- كاد"، أو ربما "لم يكاد"، أو هو أستاذ جامعي، يعد الأوراق البحثية، والأيام، ليصبح برتبة أكاديمية عالية، ليشار له بالبنان فقد أكمل علوم العمران وحصل على الدرجة التي يريجوها.

في هذا المقام، لسنا بمعرض مراجعة تفصيلية لآفات عملية "إنتاج" المعماريين وطبيعة التعليم المعماري، فقد أشرنا لها في مقالات أخرى، وفضحنا ما أسميناها "سدنة الصنم الأكاديمي"، ذوي العقول القروسطية التي تنبش علوم الأقدمين وتعيد انتاجها في زمن آخر وظرف ومحتوى معاصر، فضلا عن كونهم عقبة، أمام طلبتهم وأمام زملائهم وأمام "الإبداع"! وعرضنا لإشكالات التعليم المعماري وإشكالات المهنة في العمارة في مواضع أخرى. لكن ما يعيننا هنا هو عشرات، إن لم يكن "مئات" الجرائم التي ارتكبت وتركب بحق "مواهب" فذة لمعماريين كان يمكن أن تنطلق من عقالها لو كان هناك نظام، أو عامل مساعد على الإبداع، والإبداع الأدبي على وجه الخصوص.

المعماري، شيخ البنائين، أو (architect) بالإنجليزية، هو قائد للفريق، وتطلق الكلمة على تخصصات خارج العمارة. فكثيرا ما تطلق في سياقات سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية، لتدل، بعموم اللفظة على "مهندس مشروع ما" - سواء أكان سياسيا أم غيره. لكن حال المعماري وحضوره في المشهد الثقافي، العربي خصوصا والعالمي عموما، وإن كان الأخير لا يعيننا هنا، هو حضوره بأئس يدعو للرتاء. فالمعمار تحول لتابع، مقلد، معيد للإنتاج، راکض وراء الفرص، مطور عقاري، لاهت وراء الأقباب، والوظيفة، والشهرة، وإعادة إنتاج ما تم إنتاجه أصلا، أو إعادة النسخ، وترك دوره كقائد للإبداع وكمثقف متعدد المواهب! اضمحلت في عقلية ملكة الأدب، وتراجع مخزون رصيد كلماته وقدرته على التعبير. في ذلك وصفنا "محمد أركون" بأننا، وباستثناء بعض الأكاديميين الذين برعوا في الكلام أو الطحن الأجوف ولا شيء سواه، لا نقدر على التعبير عن أفكارنا سوى بالإسكتشات. إن خاطبت معماریا في مسألة ثقافية أو حتى في العمارة، يعمد كبار المعماريين للرسم ويتناول قلمه ليخط مجموعة متداخلة من الخطوط أقرب للخریشة" منها للرسم بمفهومه الكلاسيكي. ربما يكون "أركون" محققا من بعض مشاهداته، لكن واقع الحال قد يكون أن طبيعة التعليم المعماري العربي المعاصر قد أنتجت حالات "عرجاء" أو بالإنجليزية (limbo) لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء.

في المشهد الثقافي، والأدبي، يغيب عشرات الآلاف من خريجي العمارة في العالم العربي برمته عن القصة، والرواية، والشعر، والتأليف الأدبي الذي يوظف العمارة وفنونها، وعن أدب الرحلات، وعن الترجمة، وعن القصة القصيرة، وعن الكتابة بمفهومها الواسع، أو الكتابة الصحفية ومزاحمة جحافل المثقفين والأدباء والروائيين. ولن يرقى طموحنا لذكر غيابهم عن مجالات النقد والتحليل والفلسفة - فهذا ترف لا يسمح به واقع الحال البائس أو الظرف النكد الذي تمر به مرحلة إنتاج العمارة العربية - والمعماريين المعاصرين من جيل "كان طموحا"، تخرج وكاد يسد الأفق.

الإبداع, بمفهومه الواسع, كلمة لا حدود لها, ولكي يكون المعماري "مبدعا", هناك استحقاقات أولية لا بد من توفرها أساسا لدخوله قسم العمارة. لكن المفارقة أن "مقصلة" التعليم المعماري, ومناهجه, تخلو من أي "محفزات" أو برامج للتعبير عن هذا الأبداع. وبدلا من أن يكون هناك "غريلة" بعد السنة الأولى في قسم العمارة يتم تحويل الطلبة بعدها لتخصصات وتفرعات, تحوي قاسما مشتركا من مساقات التعليم المعماري لكافة الطلبة في التخصصات المختلفة بالإضافة لما يشدذ موهبتهم ويصقلها, بدلا من ذلك نجد أن التعليم المعماري يقف على مسافة متساوية من "مجموعات" لا حصر لها من الطلبة ذوي المواهب المختلفة. طلبة التعليم المعماري هم طليعة ونخبة خريجي المدرسة, وبعضهم يهوى الأدب ويجيد الرواية, ولا تعني وجود هذه الميول أنه ليس من حقهم ان يكونوا معماريين, بل على العكس يكون من "الجرم" قتل جانب الإبداع الأدبي في المعماري. ومن ناحية أخرى, فكثير من الطلبة تم قبوله أصلا على أسس توفر "إبداع فني", من قدرة على الرسم أو الخط العربي. لكن المقتل هنا هو تغييب إبداعات أخرى, كالمواهب الموسيقية, والأدبية, والشعرية. ألم يصف دانتي العمارة بأنها "موسيقى متجمدة"؟

في هذا الإطار, نجد أن شيخ المعماريين العرب كان مبدعا في الشعر أصلا قبل أن يتوجه لدراسة العمارة. هذه حالات ظهرت للنور بفضل شهرتها, لكن ربما تكون هناك مئات الحالات ممن تم "ذبح" إبداعاتهم على مذابح العمارة في مدارس ومناهج التعليم المعماري العربي القائمة أصلا. في ساحة العمارة وتداخلات العمارة والإبداع الثقافي والأدبي, تجد قلة قليلة من المعماريين تكاد تعد على أصابع اليد الواحدة في هذه المجالات المتداخلة. يقف على مقدمتهم الصديق المعماري الدكتور مشاري بن عبد الله النعيم. قبل حوالي عامين وبعد ظهور مشترك للدكتور مشاري النعيم وكاتب هذه السطور على قناة الحوار الفضائية بلندن في برنامج عن المدينة العربية, وأثناء عودتنا بالسيارة دار النقاش وتشعب وجئنا على فكرة "الحوار" المعماري. تذكرت ما ساد من أدبيات كلاسيكية بين "إخوان الصفا" في رسائلهم, وطرحت فكرة المراسلة عن بعد في أدبيات العمارة, وفعلا دارت مراسلات مؤرخة بيننا كانت من وحي موضوعات عمرانية من بينها "أدب الرحلات" التي خاضها الدكتور النعيم في أسفاره المختلفة في القاهرة وتونس وليبيا وسواها. ما أثار هذه المداخلات الأدبية هو حضور الدكتور النعيم في المشهد الثقافي من خلال قطع أدبية أخذت جعلت ماثرة (إن من البيان لسحرا) واقعا معاشا في مقالة ساحرة عنونها (قلوب مبصرة ترى المكان), بالإضافة للعديد من القطع الأدبية الساحرة وقطع من أدب الرحلات منها "يوميات لندنية". في هذا الإطار تجد معماريين مخضرمين برعوا في العمارة والأدب, واحدهم هو الصديق المعماري العماني الأستاذ سعيد الصقلاوي. تواصلت مع الصديق الصقلاوي بلندن

العالم الماضي وسعدت بروعة إلقاء الشعر من واحد من دواوينه الشعرية الغزيرة التي ترجمت لعدة لغات أوروبية، وواحدهم وليس آخرهم الصديق معالي وزير النقل والمواصلات المعماري أسامة العيسوي الذي يكتب مقطوعات أدبية وشعرية أطلعت عليها شخصيا وبعضها لم ير النور. وأقلهم كاتب هذه السطور وله "شطحات" أدبية مماثلة مثل "حكاية تراث" ويوميات معماري، وأكثر من أربعين فصلا لكتيب نشر معظمه ولم ينشر بعد، في محاولة لإعادة إحياء العلاقة بين الأدب وبين العمارة في قطع أدبية.

في مقابل هذا التغييب لطاقت وإبداعات المعماريين، وتهميش دور المعماري وغيابه الكامل عن المشهد الثقافي والأدبي العربي، نسعى لوضع خارطة طريق نحو إعادة هذا الدور وهذه العلاقة الأساسية. نجد في صنوف الأدب العالمية تقديرات على مستوى جائزة تكريم للمبدعين هدفها تحفيز وبعث الطاقات من مكانها. في العمارة هناك جوائز عربية وعالمية لإبداعات الجانب "الفني المعماري" للعمارة والمعماريين، لكن ليست هناك جائزة واحدة تهتم بإعادة دور المعماري "كمدع" حقيقي وقائد يدير دفة الأدب ويعالج الثقافة ويزاحم المثقفين. ليست هناك جائزة في "أدب الرحلات" وهو مجال معماري وتخطيطي مديني بامتياز، ليس هناك جائزة في مشاريع الترجمة الرائدة في "الكتب الأدبية" فيما يخص العمارة ونقل المعرفة والثقافة مع تحقيق وتعليق، ليس من كتب أو مخطوطات العمارة المتخصصة ولكن من العلوم المتداخلة مع العمارة وصوغها بقالب تحليلي نقدي. ليس هناك من جائزة لمشاريع الريادة في الإعلام المعماري الثقافي ومنها الكتابة الصحفية المعمارية المتميزة. ليست هناك من جائزة للمعماري الشاعر. ليست هناك من جائزة للمعماري الخطاط المبدع. ليست هناك من جائزة للمعماري الروائي. ليست هناك من جائزة للمعماري القاص، أو المعماري الفنان مصمم الأزياء أو الفولكلور، أو المعماري الأديب الباحث في الأنثروبولوجيا والتراث، أو تشجيع ظهور المعماري المؤرخ، أو المعماري الفيلسوف. نكتب كثيرا كمعماريين منظرين في دور وأهمية التراث، وننسى أن التراث بمفهومه الواسع يشمل التراث المادي والتراث المعنوي والآخر يتفرع لما لا يحصى من مظهرات الفن والأدب التي يمكن بعثها برفد طاقات المعماري فيما وراء محدودية التعليم المعماري الحالية، أو قدرات الخريجين التي تم تحجيمها وتحجيرها في قنوات محدودة ومعدودة.

كل هذه الجوائز يمكن دمجها في مشروع جائزة عربي واحد - "جائزة البوكر المعمارية العربية". كل هذه الإبداعات والطاقت الكامنة يمكن رفدها وتشجيعها بإطلاق مشروع عربي للجائزة، بتبني مؤسسة أو مجموعة مؤسسات عربية لفكرة الجائزة التي تطلق كل سنتين مثلا، بمجلس أمناء، ولجان تحكيم دورية، وبرنامج برؤية ثقافية يقوم عليه نخبة من رواد الفكر والنقد لتقويم مناهج

التعليم المعماري الحالية, لإطلاق مواهب الطلبة المعماريين في سنوات العمارة الاولى لإنتاج "معماريين أدباء", و"معماريين روائيين" ومعماريين شعراء" يعنون بسبر أغوار الجانب المعماري في الأدب الكلاسيكي أو الحديث. هناك دلالات واستحقاقات في النصوص الأدبية تشير بقوة لحقائق وعلم العمارة يتم استخلاصها من النصوص الكلاسيكية من جهة, وصوغها حديثا على أيدي معماريين أدباء. كل هذا سيخفف العبء على تراحم عشرات الآلاف من المعماريين على مهنة العمارة التي أصبحت جامدة ومرتبطة بعلوم محدودة مرتبطة بالفن أكثر من الأدب, حتى غاب المعماري العربي عن مشهد الأدب والثقافة غيابا بئسا. هناك جهات عربية رائدة في المملكة العربية السعودية وفي دولة الإمارات العربية المتحدة, وفي سلطنة عمان وفي قطر والكويت والبحرين كلها عملت وتعمل على تشجيع الأدب والفن, ولا يضيرها أن توجه اهتمامها لجائزة عربية رائدة ننادي بها من على هذا المنبر النقدي - لإطلاق "جائزة البوكر المعمارية العربية" لتشجيع الفن والأدب العمراني خارج الحدود الكلاسيكية للعمارة كما فهمتها وقدمتها المعاهد الاكاديمية العربية على مدى عقود. ولا أقل من اهتمامنا بالتراث المعماري أن نوسع دائرة وأفق هذا الإهتمام ونعود للوراء خطوة أو اثنتين ونرعى الأجيال القادمة من المعماريين وهم على مشارف الدخول في كليات العمارة بتنمية وتشجيع ميولهم الأدبية لإنتاج جيل متميز غير مسبوق من المعماريين المبدعين.

وليد أحمد السيد

لندن في 06 آب 2011 الموافق 06 رمضان 1432